أدب وملاحم السعودية من يوم التأسيس

محمد عوض الله العمري

الأدب والتاريخ بينهما ارتباط عميق جدًا، فالأدب وما يحوي من جمال وإبداع غالبًا ما يستمد مادته من دواوين التاريخ من خلال الوصف والتدوين بأسلوب أدبي فني، وإن تميز التاريخ باعتماده على المعلومات والحقائق المجردة فإن الأدب يروي أحداث التاريخ من خلال شكل فني الأمر الذي يؤدي لإبداع القصة والرواية والشعر والتي تدون التاريخ مع تماهيها بأركان الأدب من عاطفة وخيال وجمال صياغة ووزنٍ وقافية -إن كان شعرًا-مما يؤدي إلى زيادة رسوخ الأحداث التاريخية في أذهان الناس.

وإن كان التاريخ مسطرًا في الكتب، فإن الأدب يمكنه أن ينقل لنا التاريخ بأسلوبه الفني عبر وسائل أكثر التصاقًا وتأثيرًا ومعايشة من خلال مسرحة القصة والرواية، وإخراجها في أفلام سينمائية، ونشرها في وسائل الميديا الحديثة بصور مختلفة كمقالات أدبية، أو من خلال إنشادها وغناءها إن كانت شعرًا.

إن التاريخ يمثل بشكل رئيس رواية وقصة الناس من خلال علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وعلوم الآثار (الأركيولوجيا)، وكيفية تعامل الناس مع بعضهم من خلال المشتركات والاختلافات، وفي حال السلم والحرب، وكذلك مدى تعاملهم مع ما يحيط بهم من أحداث وظروف ومناخ وتضاريس وغيرها من العوامل التي يمكن للإنسان التعامل والتفاعل معها بأي شكل، فيدونها المهتم فيما يعرف بكتب التاريخ.

ويأتي الأديب فيعيد صياغة هذا التاريخ ضمن أحد فنونه مطرزة بخصائص الأدب وجمالياته المتعددة.

(هوميروس) من خلال (الإلياذة) و (الأوديسة) قدم عملاً فنيًا أدبيًا خالدًا خلّد بها أحداث تاريخية وملاحم بطولية لحرب (طروادة)، فأنتجت من خلال هاتين الملحمتين الأفلام السينمائية التي أدت إلى ذيوع صيت أحداث (طروادة) في أرجاء العالم.

وكذلك قدم (ثوسيدايدس) الحرب (البيلوبونيسية) من خلال وصف تاريخي سردي تلك الحرب التي كانت في القرن الخامس قبل الميلاد، وبقيت أحداثها وذكرياتها بين الناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل.

فالمدرسة الفكرية الفرنسية تدرس الأدب بناءً على أساسه التاريخي والوطني، ومدرسة (زوندي) الألمانية تدرس التأثيرات الاجتماعية الملهمة للأحداث التاريخية، أما المدرسة الأمريكية فتبحث عن الحقائق الشاملة.

والقصة الخيالية التاريخية تمثل نوعًا جذابًا وسائدًا من أنواع الأدب حين تجسد العلاقة المتينة بين التاريخ والأدب عن طريق دراسة حقبة تاريخية في نمط قصة.

وهذا النوع من القصص قد يكون خياليًا بحتًا أو قد يعبر عن وصف لأناس وأحداث فعلية ولكن صيغت في مكون قصصي يلعب الخيال فيه دورًا واضحًا، فمن أمثلة الكتب القصصية الخيالية والتي تستند لأحداث تاريخية كتاب (بيرنارد كورنويل) عن أوربا نابليون والعصور المظلمة وحرب (أجينكورت)، وكتاب (هيلاري مانتل) في القصة التاريخية (قاعة الذئب) حول توماس كروميل.

هذا في الجانب العالمي، أما في الجانب المحلي ورغم ما يكتنزه التاريخ من أحداث وملاحم عظيمة، وبطولات وتحولات مؤثرة، فإننا نكاد لا نقرأ عنها إلا من خلال الكتب التاريخية، وهي خاصة لذوي الاهتمام، أما بقية الناس فقد يسمعون بعض القصص المنقولة من خلال الروايات والقصص الشفهية والتي غالبًا ما يشوبها القصور.

أو من خلال الشعر الذي وإن خلّد لنا بعض الأحداث إلا إنه يعاني قصورًا كبيرًا في تخليد تلك الأحداث.

وسواء الشعر أو النثر فالأدب بصفة عامة قصّر عن أداء رسالته وفق المصدر القوي الذي يفترض أن يستند إليه، فلم نجد القصص والروايات والملاحم الشعرية التي تصور الأحداث التاريخية التي تمثل منعطفًا هامًا في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والفكرية، لم ينقل لنا الكتاب والأدباء تلك القصص والأحداث المرتبطة بالإنسان والآثار بطرق فيها من الإلهام والفخر وترسيخ مبدأ الوحدة والتعايش من أجل البناء والاستمرارية في وتيرة التطور الطبيعي.

ننتظر قصصًا وروايات وملاحم شعرية تخلد لنا تاريخنا وحياتنا من يوم التأسيس، وتترجم هذه الأعمال الأدبية إلى السينما ونصنع محتوى ثقافي معرفي يعزز من القيم والمبادئ الملهمة في نفوس أبنائنا، وينقلها العالم عنا.

(يا شيخ باح الصبر من طول المقام يا حامي الوندات يا ريف الغريب
اضرب على الكايد ولا تسمع كلام العز بالقلطات والراي الصليب) *

محمد بن عبد الله العوني